في لغة «الكرازة» أو «التربية المسيحيّة»

الأب ڤيكتور شلحت اليسوعيّ*

لمّا انعقد مجمع الأساقفة في رومة العامَ ١٩٧٧، وجّه رسالة إلى شعب الله في شأن التعليم المسيحيّ ورد فيها ما يلي: «إنّ التربية المسيحيّة تنطلق من فعل الإيمان، كما تقود إلى فعل الإيمان» (رقم ٨). ويشمل فعل الإيمان هذا بدرجة أولى الاعتراف بقيامة المسيح وتأوينها في مختلف ظروف حياتنا. لكنّ عمليّة التربية المسيحيّة لن تفضي إلى هذه النتيجة ما لم تأخذ بعين الاعتبار عنصر الكلام، بل وأسلوب الكلام بالذات[1]. فالتربية المسيحيّة أو التعليم المسيحيّ والوعظ والكرازة تلجأ جميعها إلى الكلام، وتستمدّ منه الأدوات اللازمة والأساليب لتحقيق هدفها في نقل بشرى الإنجيل.

تعدّد أساليب الكلام في التعبير عن الفكر

عندما نتكلّم نشعر بأنّه بإمكاننا التعبير عن الفكرة الواحدة بطرائق مختلفة، ممّا يجعلنا نتساءل كيف نعرض الفكرة وكيف نطرحها لكي تجتذب انتباه المستمع وإصغاءه وتَقَبُّله ما نريد إيصاله إليه. ونختبر هكذا أنّ المتكلّم قد يستخدم عدّة أقنية أو أساليب، لنقل ما يريد أن ينقله إلى

(*) باحث له مؤلّفات في شؤون الإيمان والتربية. - ومقاله هذا فصل من كتاب معدّ للطبع عنوانه رفيق المعلّم في التربية المسيحيّة.

(١) Odile Dubuisson: *L'acte catéchétique*, Le Centurion, Paris, 1982.

الآخر، وأنّ وَقْع كلامه على المستمع متوقّف على أسلوب الكلام.

ولدينا في الكلام عدّة أقنية أو أساليب أو مستويات، توفّر لنا وسائط مختلفة لبناء نموذج عمليّة الكرازة بعامّة، وما يقوم به معلّم التربية المسيحيّة بخاصّة. ومن الجدير بالذكر، أنّ هذه الوسائط ليست خاصّة بالكلام الدينيّ، بل هي طرائق مختلفة تتعلّق بسير عمليّة الكلام مهما كان مضمونها. فلنوضح ذلك بمثالٍ بسيط مستمدّ من الحياة المدرسيّة: لدينا ثلاث صيغ أو ثلاثة أساليب للتعبير عن الموضوع نفسه، وهي:

١ - في أثناء الاستراحة، تلعب سميرة وحنان ومريم بالقفز على الحبلة، فتمسك سميرة وحنان بطرفَي الحبلة، وتقفز مريم.

٢ - المربّية: يا سميرة وحنان ومريم، يجب أن تَلْعَبن بالحبلة. هلمّي يا حنان، أعطي سميرة طرف الحبلة، ولتقفز مريم.

٣ - المربّية: هلمّي يا مريم لنلعب بالحبلة! - مريم: ليس لي رغبة في ذلك، بل أفضّل اللعب بالكرة. - أسرعي يا مريم، إن أتيتِ، ستقفزين الأولى.

فالصيغة الأولى هي مجرّد عرض الوقائع: تلعب الفتيات الثلاث بالحبلة، اثنتان تمسكان بطرفَي الحبلة، والثالثة تقفز. وتعرض الصيغة الثانية فكرة اللعب بالحبلة، مع نصيحة وأمر. أمّا الصيغة الثالثة فتعرض ما تشعر به الفتيات إزاء اللعب بالحبلة.

ففي الصيغة الأولى تتوالى المشاهد كالصور على شاشة التلفزيون، وفي الثانية تتجمّع الوقائع حول تصوّر المربّية للاستراحة، حول فكرة. أمّا الصيغة الثالثة فتعرض لنا ما تشعر به الفتيات، ومن خلال ردود فعلهنّ، ندرك أنّ الموضوع يدور على لعبة الحبلة. ومن الجدير بالذكر أنّ الصيغ الثلاث هذه تمثّل أساليب مختلفة للتعبير عن «لعبة الحبلة». وعليه نقول إنّ الكلام في الصيغة الأولى هو كلام إخباريّ وقائعيّ. وفي الثانية، هو كلام توجيهيّ مبادئيّ. وفي الثالثة هو كلام وجوديّ. فنحن إذًا إزاء ثلاثة

مستويات ينصبّ فيها ضرورةً كلُّ كلام وكلّ خطاب وكلّ عمليّة اتّصال. ونحن نستخدم هذا المستوى أو ذاك بحسب ما نريد أن نبلّغه المخاطبَ، وبحسب النتيجة التي نتوخّاها.

أساليب الكلام الثلاثة في التعليم المسيحيّ والكرازة

لكلّ من الصيغ أو الأساليب الثلاثة المذكورة إمكاناتها الخاصّة ودورها وحدودها في عمليّة الكرازة بعامّة، والتربية المسيحيّة بخاصّة.

فبوساطة **الكلام الوقائعيّ والإخباريّ**، يتكلّم معلّم التربية المسيحيّة أو الواعظ على الموضوع بحدّ ذاته، ولا تظهر في كلامه أيّ علاقة بينه وبين موضوعه. فهو يعبّر عمّا يظهر للعيان وكأنّه يعطي صورةً ضوئيّة لِما يتكلّم عليه، إذ يذكر تفاصيل الأشياء وألوانها وخصائصها المادّيّة ومظهرها الخارجيّ، فتختفي والحالة هذه شخصيّته وراء كلماته: إنّه مجرّد آلة إرسال. أمّا المرسل إليه، فيتلقّى الموضوع مجرّدًا عن أيّ تأويل، وتمرّ الوقائع أمامه على حدّ ما يجري في شريط سينمائيّ وثائقيّ. فينظر إليه ثمّ ينهض وينصرف.

ولهذا الأسلوب من الكلام مكانته في الكرازة، كما هو الحالّ في أيّ عمليّة اتّصال أُخرى، ولكنّها مكانة محدودة، ويُستخدم لنقل ما يحتاج المسيحيّ إلى معرفته من معلومات وأحداث لدعم تفكيره الإيمانيّ. إنّنا نستخدم هذا الأسلوب عندما نعرض حادثةً إنجيليّة مثلًا، كحلول الروح القدس على التلاميذ يومَ العنصرة. فنذكر وجودَ الرسل في مكان واحد والأبوابُ مغلقة، والصوتَ المدوّي من السماء، وظهورَ الألسنة وكأنّها من نار، وانقسامها ووقوفها على كلّ من الرسل، وامتلاء هؤلاء من الروح القدس، وتكلّمهم بلغات غير لغتهم. غير أنّ هذا الأسلوب لا يسمح للمتكلّم بالتعبير عن وقع هذا الحدَث على حياته هو، ولا عن التزامه الشخصيّ، وبالتالي لا يتيح له إمكانيّة التعبير عن إيمانه، ولا يقود ضرورةً المرسَلَ إليه إلى الاعتراف بالإيمان.

أمّا الكلام المبادئيّ والتوجيهيّ فيقيم جسرًا بين شاطِئَي الكلام، أي العلاقة بين المتكلّم والمخاطَب، بين المرسِل والمرسَل إليه، بين المربّي والمتربّي. فالمتكلّم يتوجّه إلى عقل المخاطَب، وإلى ذكائه ووجدانه، فيحوّل الواقع إلى فكرة عامّة، يشرحها ويوضّحها مستعينًا بالتشابيه والأمثلة. وهو بهذا الأسلوب يفصّل أيضًا الأفكار والأشياء، ويميّز فيها بين المناسب وغير المناسب، بين الصحيح والخطأ، بين الصالح والشرّير، ويبيّن بالتالي ما هو مسموح به وما هو محرَّم، الأمر الذي يعطي هذا الأسلوب بعدًا توجيهيًّا أخلاقيًّا.

ولهذا الأسلوب مكانة مهمّة في الحقل الدينيّ. فعِلْمُ اللاهوت وتفسيرُ الكتاب المقدّس وتاريخُ الكنيسة وشرحُ العقائد والوصايا تَستخدم جميعها هذا الأسلوب من الكلام، وبوساطته يستطيع المتكلّم أن يوضّح العقائد الدينيّة وينقلها إلى الآخرين، كما هو الحال مثلًا عندما يَشرح مفاعيلَ الروح القدس، وانتقاله إلى الكنيسة، ومن خلال الكنيسة والأسرار إلى المؤمنين. غير أنّ هذا الأسلوب لا يصلح عادة للتعبير عن التزام المتكلّم الإيمانيّ، ولا يسمح للمربّي أو الواعظ أن يعبّر عن علاقته الشخصيّة بما يرويه أو يشرحه. إنّ هذا الأسلوب يعبّر عن موقف فكريّ، ولا يسمح بعد بالاعتراف الحياتيّ بالإيمان. وهذا ما يجري عندما يعرض المتكلّم موضوعًا دينيًّا بدون أن يكون مقتنعًا به تمامًا، فيعرضه ويشرحه كما يشرح مادّةً علميّة فحسب. وقد يحدث ذلك أحيانًا في بعض المدارس عندما يُطلب مثلًا إلى أستاذ ما لمجرّد كونه مسيحيًّا أن يدرّس مادّة التعليم المسيحيّ، وهو غريب عنها، فيقوم بها لكسب المكافأة الماليّة.

أمّا الأسلوب الوجوديّ من الكلام فيتيح للمتكلّم أن يعبّر عن الموضوع وعن علاقته الشخصيّة به، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ففي حين كان المتكلّم في الأسلوب الإخباريّ يتوارى وراء وصفه الموضوع، وفي الأسلوب المبادئيّ التوجيهيّ يقتصر على شرحه وتفسيره، تظهر في الأسلوب الوجوديّ علاقتُه الشخصيّة بما يعرضه من حقائق وعقائد. فهو لا يوظّف في حديثه ذاكرته وعقله وذكاءه فحسب، بل شخصه بكامله وقلبه

وإرادته وحرّيته أيضًا. والمربّي المسيحيّ لا يستطيع القيام بذلك إلّا إذا كان ذا خبرة روحيّة شخصيّة. وفي هذه الحالة لن تقتصر مهمّته على تكرار عبارات تعلّمها في الكتب، بل تصبح أيضًا تعبيرًا بطريقته الخاصّة عن خبرة شخصيّة وشهادة لما يؤمن به ويعيشه.

ويُتيح أيضًا هذا الأسلوب للمتكلّم أن يبيّن كيف يمسّ ما يقوله حياتَه في الصميم، وأن يتحدّث عن تفاعله مع مضمون كلامه، وأن يعبّر عمّا يثيره في نفسه من عواطف ورغبات. فإذا كان يتكلّم على الروح الذي منحه يسوعُ تلاميذَه، فيشير إلى الروح القدس الساكن فيه، أو إلى علاقته به في الحياة، ولجوئه إليه، أو إلى ما يتلقّاه منه من غذاء روحيّ في القربان الأقدس، وما يستمدّ منه في الصلاة من نور وفرح في مختلف ظروف حياته، ومن قوّة وشجاعة في خدمة الملكوت، معبّرًا عن ذلك بتعابيره الشخصيّة. فيستشفّ المستمع عندئذ من كلامه أنّ المربّي أو المعلّم يعيش هو أيضًا ما يتكلّم فيه.

هذا الأسلوب من الكلام هو أسلوب **الاعتراف بالإيمان والشهادة الحياتيّة**، وهو الأسلوب المميّز لعرض الإيمان، ذلك بأنّه يفسح في المجال للمربّي أو الواعظ أن يعبّر بأسلوبه الشخصيّ عن إعجابه بتعاليم يسوع وأعماله، وعن التزامه الحياتيّ بحدث موته وقيامته حبًّا لنا. وهذا المستوى من الكلام جدير بأن يقود المرسَل إليه هو أيضًا إلى الشهادة الحياتيّة والاعتراف بالإيمان.

أسلوب الكلام في الكرازة والتعليم المسيحيّ

يُتيح لنا الحديث عن مستويات الكلام الثلاثة أن نعرف أيّ علاقة يُقيمها المربّي المسيحيّ نفسُه بمضمون كلامه، وبالتالي أن نعرف نوعيّة العلاقة التي يُثيرها بين المتربّي وما يُعرض عليه من حقائق دينيّة.

لذلك يجدر بنا أن نتنبّه أوّلًا إلى ظاهرة شائعة في التعليم المسيحيّ أو في الكرازة. فغالبًا ما نخلط بين مضمون الكرازة وعمليّة الكرازة،

وغالبًا ما نهتمّ، أكثر ما نهتمّ، بنقل مضمون الإيمان وتحديد ما يتوجّب على المسيحيّ أن يؤمن به ويمارسه. غير أنّه في الواقع لا يوجد مضمون إيمان مستقلّ عن إيمان ناقل الإيمان، بحيث نستطيع أن ننقله كما تُنقل مثلًا قطعة أثاث من مكان إلى آخر. إنّ فاعليّة مضمون الإيمان مرتبطة بأسلوب الكلام المستعمَل، ومن الأهمّيّة بمكان أن نستعمل الأسلوب المناسب للكرازة والتربية المسيحيّة التي تهدف أوّلًا وآخرًا إلى إنعاش الإيمان وتنميته. إذ إنّه يختلف وقع مضمون الكلام على المستمِع باختلاف أسلوب الكلام الذي يلجأ إليه المتكلّم في عمليّة التربية المسيحيّة. فبالأسلوب الوقائعيّ الإخباريّ ينتقل الاعتراف بالإيمان إلى المتربّي بطريقة حياديّة ويترك له مهمّة تأويله كما يشاء. وبالأسلوب المبادئيّ التوجيهيّ ينتقل الاعتراف بالإيمان بطريقة نظريّة على أنّه شرح فكرة أو عقيدة. أمّا بالأسلوب الوجوديّ فيصبح الاعتراف بالإيمان شهادةً حياتيّةً. وينتقل مضمون الإيمان إلى المتربّي في علاقته بالمربّي، بمقدار ما يوضّح هذا الأخير علاقته بمضمون كلامه، وبحسن استعمال هذه الأساليب في عمليّة التربية المسيحيّة. فإذا ما كان يروي حدثًا أو يشرح فكرة أو عقيدة، فلن يسترسل في شرحه، بل ينتقل سريعًا إلى الأسلوب الوجوديّ، فتظهر حينئذ في كلامه العلاقة التي يقيمها هو بمضمون إيمانه.

فعلى المربّي إذن أن يدرك أوّلًا أنّ هدف التربية المسيحيّة هو قيادة المؤمن إلى الاعتراف بإيمانه في مختلف ظروف حياته، لأنّ التربية المسيحيّة، كما رأينا، «تنطلق من الإيمان وتقود إلى الإيمان»، فإلى تعميق الإيمان. وثانيًا أنّ الأسلوب المناسب لتحقيق هذا الهدف هو الأسلوب الوجوديّ، أي أسلوب الشهادة الشخصيّة. فوقع كلامه على المؤمن، أناشئًا كان أم بالغًا، يختلف تمامًا إذا قال: «أنا فلان أؤمن بأنّ يسوع المسيح مات وقام حيًّا لي وسيقيمني»، عمّا إذا قال مفسّرًا: «قام يسوع من بين الأموات، معناه أنّه في اليوم الثالث بعد موته، قد جمع بقدرته الذاتيّة بين روحه وجسده وخرج من القبر». وفي هذه الحالة، لن تكون التربية المسيحيّة مجرّد عرض معلومات تعلّمها المربّي وحفظها، فيكرّرها، بل

تصبح شهادة حياتيّة صادقة، تعبّر عن خبرة روحيّة شخصيّة. وهذا ما يلحظه مستمعوه ويقدّرونه متأثّرين به، ممّا يحملنا على القول إنّ الشهادة الحياتيّة وحدَها تترك أثرًا بليغًا في المؤمن، وتشجّعه على الاعتراف بإيمانه اعترافًا حياتيًّا.

ونقول أخيرًا إنّه لا يكفي المربّي أن يستخدم الأسلوبَ الوجوديّ لتحقّق التربيةُ المسيحيّة هدفها، بل عليه، حين يستعمل صيغة المتكلّم أن يقوم بذلك بصفة كونه فردًا في المجتمع الكنسيّ، إذ إنّ المربّي يمثّل، في عمليّة التربية المسيحيّة، الجماعة المسيحيّة، أي الكنيسة التي تنقل إيمانها إلى أعضائها. وهكذا يتمكّن هؤلاء من إعلان إيمانهم هم أيضًا، كلّ بمفرده وجميعهم معًا، بالاشتراك مع المربّي وبالاتّحاد بالكنيسة جمعاء.

وختامًا، نذكر أنّ مَن تُوجَّه إليهم الكرازة أو التربية المسيحيّة، أو التعليم المسيحيّ، مدعوّون إلى تبنّي موقف المربّي الإيمانيّ، ولكنّهم يبقون، في هذه المرحلة، أحرارًا، لأنّ علاقة المؤمن بالله هي مسألة شخصيّة. وبمقدار ما يُقرّون بأنّ الإيمان بيسوع الذي مات وقام حبًّا لهم، يَمسّ حياتهم في الصميم، فإنّهم يعلنون إيمانهم ويوجّهون مع المربّي الصلاة إلى يسوع الذي يرسل روحه القدّوس لمواصلة عمله الخلاصيّ. وهذه الصلاة لا يمكن أن نعبّر عنها إلّا بوساطة الأسلوب الوجوديّ.

من منشورات دار المشرق